الحياة الأدبية في السودان
بين ماضيها وحاضرها
للأديب سعد الدين أ. فوزى

لا أريد أن أطوى القرون القهقرى ، لأتكلم عن النهضة الأدبية فى الســودان القديم الذى عاصر الفراعين فى مصر ، والبابليين والأشوريين فى العراق . ولا أريد كذلك أن أقتصر على النهضة الأدبيــة الناشئة الآن ، ولــكنى أحب أن أقدم عرضاً موجزاً للحياة الأدبية فى السودان العربى

عند ما انتصر العباسيون تفرق الأمويون فى بلاد الله ، فنزل فريق منهم الأندلس وأسس بها مملكته الشماء ، وجاء فريق إلى جنوب الســودان وهبط سنار بين النيلين الأزرق والأبيض ، حيث وجد موجات عربية أخرى قد سبقته ما بين القرنين السادس والثالث عشر الميلاديين إلى تلك الربوع ، وهناك امتزج بالسكان الأصليين وتزوج معهم وتناسل ، على أشهر الروايات ، وأسس صرح مملكة عظيمة تسمى بالسلطنة الزرقاء أو مملكة الفونج ، امتدت شهرتها حتى وصلت إلى القسطنطينية واتسعت حدودها حتى البحر الأحمر وأطراف الحبشة وحدود دارفور

وقد اشتهر ملوك سنار بما جُبلوا عليه من الشيم العربيــة ، من الــكرم والشهامة وحب الثناء ، فــكان الشعراء يفدون عليهم من مصر ومن سائر البلاد العربية ، فينظمون فيهم عقود الثناء ، وينضدون فيهم قلائد المدح ؛ ولــكن الطابع الأصيل للنهضة الأدبية فى رعاية ملوك ســنار كان دينياً بحتاً ، فــكان للعلوم الفقهية المقــام الأول ، فى الدراسة والتحصيل ، وفى البحث والتنقيب . ولم تقتصر همة ملوك الفونج على رعاية العلماء فى داخل حدودهم ، بل كانت لهم صلات وثيقة بأفاضل العلماء فى مصر ،

لا ألوم تلك الممثلة المكينة ، وأعتذر إليها من وصفى موقفها ذاك ، إنما ألوم الذى أثقل كاهلها بحمل لا تطيقه طبيعتها بزعم خاطئ وتقدير معكوس فى أنه يرفعها إلى مصاف كبار الممثلات ، وإذا به يدفعها إلى الهاوية التى لا تستأهلها

لا يعني كلامى أن هذه الممثلة لا تتقن فن التمثيل ، فقد تصلح ولا ريب لأدوار أخرى ، إنما أعنى أن المدير الفنى أساء الاختيار كعادته فى التحكم بالممثلين والتسيطر على الممثلات

بودى لو أقف طويلاً حيال كل رواية أخرجها الأستاذ طليمات لأقارنها بروايات أخرجها الأستاذ فتوح نشاطى ، وبذلك يتبين له البون الشاسع والفرق الظاهر بين المجتهد الدؤوب ، وبين القاعد المتقاعس

وسأفعل ذلك إذا توفر لى الوقت ، وسأتكلم عن المواقف الفنية وعن فعال العنصر النسائى فى الفرقة ، وسأخصص درساً لروايتى « قطر الندى » و « شارع البهلوان »

والآن أسأل : ماذا أفاد الأستاذ زكي طليمات الفرقة المصرية للتمثيل ، وبما ذا أساء إليها بكونه مديرها الفنى ؟

لقد أفاد الفن كثيراً ، وسأذكر هذه الفوائد بالتفصيل فى الحين المناسب ، ولــكن هــذه الفوائد على كثرتها أقل كثيراً من إساءاته ، ولا أحصى منها إلا ما يأتى :

١ — أساء إلى الحــكومة فى تعطيله قانون الفرقة بإدخاله اللهجة العامية وجعلها تطغى على اللغة الفصحى

٢ — أساء إلى الحــكومة فى إنفاق خمسة عشر ألفا من الجنيهات من أموال الدولة على « تــكية » ممثلين نفعوا ذواتهم ولم يحسنوا إلى الأمة ، وكان فى وسعهم نفعها لو توفر لهم مدير فنى يعمل للفن بدافع من الغيرة على الفن والاعتزاز بأمته

٣ — أساء إلى الحــكومة التى وكلت شــئون التمثيل إلى جماعة توهمت فيهم المقدرة دون أن تقيم رقباء عليهم ، فجعلوا الفرقة مطية للأهواء والشهوات

٤ — أساء إلى النهضة الأدبية وإلى سمعة مصر فى البلاد العربية

٥ — أساء إلى نفسه وقد عرضها للوقوف أمام لجنة التحقيق — على حد ما ذكرت الصحف — عما نسب إليه من أمور لا شأن لى بذكرها

وإنه لمن المدهش حقاً أن تقف لجنة القراءة — وأعضاؤها من ذكرت — هــذا الموقف الهين اللين من مدير الفرقة الفني ، وهى تعلم أن مآلها مرتبط بسقطاته الفنية وغير الفنية ، وقد يزول العجب متى أمطنا اللثام عن بعض أسباب ذلك الموقف وموعدنا قريب

حبيب الزحلاوى

ورجالات الأزهر المعمور . ومن أشهر هؤلاء الملوك الملك بادى أبو ذقن ؛ كان يرسل الهدايا والهبات إلى رجال العلم فى الوادى الشمالى حتى مدحه الكثيرون بقصائد رنانة — أورد منها شفير بك فى كتابه « تاريخ السودان » أبياتاً للشيخ عمر المغربى قال فيها :

أيا راكباً يسرى على متن ضامر
إلى صاحب العلياء والجود والبر
وينهض من مصر وشاطىء نيلها
وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها
وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
إلى حضرة السلطان والملك الذى
حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور بادى الذى له
مدائح قد جلت عن العد والحصر
سليل ملوك الفونج والسادة الألى
علا مجدهم فوق السماكين والنسر

وظلت هذه الصلات وثيقة العرى حميدة الأثر حتى ضعفت دولة الفونج وصار الأمر فيها إلى مواليها من « الهمج » . وكان القرآن هو الدعامة الكبرى للتعليم فى ذلك الوقت ، تخصص على درسه وتدريسه فقهاء أجلاء من علماء الأزهر وعلماء السودان

ومن أشهر هؤلاء فى ذلك العهد ، الشيخ ادريس بن محمد الأرباب ، اشتهر بالفضل والتقوى ، حتى لقب بسيد الأولياء ، وكانت له ولأحفاده من المكانة عند ملوك سنار ما جعلهم ملجأ المستغيث ومأمن الخائف . واشتهر بعده الشيخ حسن بن حسونة الذى جاء أبوه من الأندلس ، فسكن « كركوج » على النيل الأزرق ، واشتهر بالصلاح والتقوى . وفى هذا العهد أيضاً رحّب السودان بعلماء كثيرين وردوا ساحته من سائر البلاد العربية ، كالشيخ تاج الدين البهارى الذى جاء من بغداد ، والشيخ ابراهيم بن جابر البولادى من مصر ، والشيخ محمد العركى من مصر أيضاً . وفى المخطوط التاريخى الذى يعرف عند مؤرخى السودان « بطبقات ولد ضيف الله » ذكر الكاتب نيفاً وتسعين من رجال العلم والدين فى ذلك العهد فى مختلف أنحاء السودان لا داعى لاستعراضهم جميعاً

أما الكتابة الفنية الخالصة والشعر الوجدانى المشبوب فما كانا غرضاً من أغراض الكتاب فى دولة الفونج ، إذا استثنينا الشعر الشعبى الذى لا يتقيد بالفصحى ، والذى يعرف عندنا « بالدوبيت » وإنما كانت الكتابة وسيلة لمدح ، أو رداً على رسالة أو تهديداً لخصم ، وكان عمادها الجملة القرآنية ، والاقتباس من الأحاديث النبوية ، مع التزام السجع ، وتقطيع الكلام إلى فقر قصيرة . وإليكم مثلا الرسالة التى رد بها السلطان محمد عدلان على اسماعيل بن محمد على قائد الجيش المصرى الفاتح عند ما طلب منه التسليم . قال :

« لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية ، فنحن الملوك وهم الرعية ، أما بلغك أن سنار محروسة بحمية ، بصوارم قواطع هندية ، وجنود جرد أدهمية ، ورجال صابرين على القتال مكرة وعشية ؟ »

وكانت الحياة الأدبية فى مملكة دارفور المعاصرة لمملكة سنار الآنفة الذكر ، والواقعة فى غرب السودان مماثلة لما تقدم وصفه : حركة دينية عمادها القرآن والحديث والمذاهب ، وأشعار مصطنعة فى مدح الملوك والسلاطين ، والفخر والحماسة ، وتعليم أساسه الدين يبذل فى المساجد وبيوت القرآن

ثم دالت مملكتا سنار ودارفور العربيتان ، واستتب الحكم المصرى فى السودان سنة ١٨٢١ ميلادية ، فاستمرت شملة الاسلام متقدة وكثرت الطرق الصوفية فى طول البلاد وعرضها وصار لأربابها من النفوذ ما يدانى نفوذ السلطة ، وانتشر علماء السودان الواردون من الأزهر فى أنحاء البلاد ، وازدحم الطلاب على أبواب كبارهم كالشيخ القرشى والشيخ محمد الشريف من زعماء الطريقة السمّانية الكبار

وقد نشر المصريون فى السودان عدداً من المدارس الأولية ، وأنشأوا مدرسة وسطى بالخرطوم بنظارة الشيخ رفاعة بك الطهطاوى ، وشمل خديويو مصر المساجد برعايتهم فأجروا أجور الأئمة ، وقاموا بأصلاح الكثير منها ، ولكن مما يؤسف له أن الشطر الأكبر من هذه الجهود ما زال مطوياً عن الجمهور

فى الوثائق الرسمية ، ولم يصل بعد إلى آذان الجمهور فى مصر والسودان . بيد أن سوق الأدب كسدت فى أواخر الحكم المصرى لاضطراب الحالة السياسية وضعف الأداريين واستبداد الجباة . وكان النثر على نوعين في هذه الفترة : لغة الدواوين التى تكتب بها التقارير وتصدر الأوامر وكانت مهلهلة لا ترمى إلى غير الأداء . ولغة العلماء والفقهاء التى ظلت تحتذى أسلوب القرآن وتسرف فى تضمين آياته وأحاديث الرسول ، ومن أشهر علماء هذه الفترة الفقيه السنوسى بقادى ، والفقيه محمد الحاج الطيب إمام جامع الخرطوم فى ذلك الحين ، والفقيه محمد على ولد العباس ، والشيخ الطريفى بن الشيخ يوسف ، والشيخ حسن ولد بان النقاب وكثيرون غيرهم .

وعند ما انتهى الحكم المصرى على يدى الثورة المهدية ازدادت شعلة الدين توهجاً ، وامتزجت السلطة المدنية بالسلطة الدينية تماماً . وكان المهدى رجلاً متفقهاً فى الدين متمسكا بالكتاب والسنة ، وكان على ذلك بليغاً سيال العبارة سلس الأسلوب ، وقد عمل مخلصاً على نشر الدين وبث العلوم القرآنية . وكان إذا ما صلى صلت الأمة كلها وراءه ، وكان إذا ما جاهد اندفع الجميع تحت لوائه . ولعل فى النبذ الآتية من خطبه ومنشوراته مايوضح ما نحن بصدده من تحليل النثر فى ذلك العهد

قال المهدى فى رسالة له : « قد اجتمع السلف والخلف فى تفويض العلم لله ، فعلمه سبحانه وتعالى لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين ، بل يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أم الكتاب . قال تعالى : « لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » و« عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » و « لا يسأل عما يفعل » و « يخلق مايشاء ويختار » . وإليكم نص البيعة التى بايعه عليها أنصاره الكرام « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم ، أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله ، وبايعناك على توحيد الله ، وألا نشرك به أحداً ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نأتى ببهتان ، ولا نعصيك فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها ، والرضى بما عند الله رغبة فيما عند الله والدار الآخرة وعلى ألا نفر من الجهاد »

وكان للمهدى شعراء أفذاذ ، نذكر منهم الشيخ عمر البناء ، فقد كان شاعراً بليغاً قوى الديباجة ، رصين المعانى ، له قصائد مشهورة أذكر منها

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الاله حياة

ولولا ضيق المقام لأوردنا الشىء الكثير غيرها . والشعر فى ذلك الحين كان يقوم مقام الخطابة عند العرب ؛ مدح المهدى وتشجيع لأنصاره وحملة على أعدائه — ومن ثم كانت دائرته محدودة ، ونظرته ضيقة

ثم انقضت المهدية وجاءت الحكومة الحاضرة ، واتصل أدباء السودان وشعراؤه بالعالم العربى الحديث فنشأت مدرستان فى الأدب : قدماء ومحدثون

أما المدرسة الأولى فنهلت من مناهل الأدب العربى القديم ، ورشفت على وجه خاص من موارد العباسيين ، وعاصرت شوقى وحافظ عند المصريين

وأما المدرسة الثانية فتأثرت بالأدب المصرى الحديث أول ماتأثرت ثم تشربت روح الآداب الغربية ، واهتزت لشعراء وأدباء المهجر

وفى طليعة الأوائل الشيخ عبد الله عمر البناء والأساتذة أحمد محمد صالح ، وصالح عبد القادر

وفى طليعة الأواخر : التيجانى يوسف بشير ومحمد عثمان محجوب والمرضى محمد خير ويوسف التنى

أما النثر فقد تطامن فتنه لأدباء السودان ، ولا داعى للأفاضة فيه ، فهو لا يتميز عن النثر الحديث فى العالم العربى ، وإنما يجرى فى ركابه مع الاختلافات اليسيرة التى تميز أسلوب كاتب عن كاتب وشاعر عن شاعر

وقد اعتاد أدباء السودان وشعراؤه أن يقيموا مهرجاناً أدبياً كل عام يعرضون فيه ثمرات أفكارهم وروائع أشعارهم . وقد أقيم هذا المهرجان فى ثانى يوم عيد الأضحى

وإذا ما قدر لإنتاج السودانيين فى القريب بإذن الله ، أن يجد طريقة إلى المطبعة فسيرى القراء الكرام مدى ما وصلنا اليه فى عالم الفكر والأدب ، ويحكمون بأنفسهم على ذلك الانتاج

بخت الرضا — سودان عبد المجيد . أ . قوزك